عيد الغطاس والناس

بقلم المطران جورج خضر

يجيء بعد الفصح بهاء عيد الظهور الإلهي الذي نقيمه غدا وتسميه العامة الغطاس إشارة الى المعمودية التي اقتبلها المسيح من يوحنا الصابغ او المعمدان (يحيى بن زكريا في الإسلام)٠ هذا اذا ذكرنا ان هذا العيد كان يجمع الميلاد والعماد في يوم واحد في فكرة ان الله ظهر على الأرض في هذين الحدثين٠ ثم افترق العيدان بين القرن الرابع والخامس ولكن الميلاد في العبادات لم يكبر على حساب الغطاس وما فاقه تكبيرا في الفرح الشعبي في كنيسة المشارقة حتى خطف الميلاد انوار الغطاس في الغرب ثم تسرب هذا الينا في العقود الأخيرة٠

الإنجيل في رواياته الأربع يركز تركيزا كبيرا على يوحنا الصابغ شخصا اعد الطريق ليسوع ويتحدث عن تعميد يوحنا لليهود والمعموديات كانت معروفة في مذهب الفريسيين٠ وقصد السيد يوحنا ليعتمد فتمنع هذا اولا مبديا ان المسيح اعظم منه حتى قال له هذا: "دعني الآن وما أريد، فهكذا يحسن بنا ان نتم كل بر"٠ وفي هذا القول اراد يسوع ان يوحد نفسه بالناس جميعا مع انه لم يكن في حاجة الى هذا التطهير٠ "واعتمد يسوع وخرج لوقته من الماء، فاذا السموات قد انفتحت فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه٠ واذا صوت من السماء يقول: "هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت" وفي الترجمات المألوفة: الذي به سررت٠

الروايات الإنجيلية الاولى الثلاث متطابقة بصورة شبه حرفية٠ في الإنجيل الرابع ليس عندنا وصف مادي للحادثة غير ان كاتبه يدلي بشهادة عن الحدث٠
في تصوري انه لا يسعنا ان نفهم معمودية السيد الا اذا قرأناها على خلفية التجلي على الجبل الذي تم فيما بعد، ذلك ان الجملة التي تلفظ بها الآب هي اياها: "هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت"٠ وحادثة التجلي نفسها يجب قراءتها مع لوقا الإنجيلي على انها مقدمة للمجد الذي كان يسوع مزمعا ان يعرفه في موته٠ عندنا اذًا في صبغة نهر الأردن هذه استباق رمزي للفداء٠ الماء رمز مزدوج للموت وللحياة اذ يغرق الإنسان فيه ويحيا به٠ هنا يرسم السيد بعناصر الطبيعة انه سوف يموت ثم يحيا من موت٠

اجل نجد في اصطباغ المسيح شهادة ثالوثية بمعنى ان الخلاص الذي سوف يتم انما كان في الخطة الإلهية٠ ولكن الحديث المباشر هو عن موت المسيح وهذا الموت هو النور الأخير٠

***

"انت ابني" قد تعيدنا الى المزمور الثاني وهناك تعني انك الملك٠ ولكن في عودتنا الى اشعياء نقرأ: "هوذا عبدي الذي اختاره الذي رضيت عنه نفسي٠ قد جعلت روحي عليه٠ لا يصيح ولا يرفع صوته... لا يني ولا ينثني الى ان يحل الحق في الأرض" (اشعياء ٤٢)٠ هذا الكلام اقتبسه متى من العهد القديم ورآه محققا في يسوع الناصري٠ هذا النشيد الإشعيائي هو من جملة الأناشيد المسملة اناشيد العبد من حيث ان المسيح اتخذ صورة عبد بالآلام٠

صورة الابن في آلام الناسوت تزدوج بصورة الابن الأزلي٠ غير ان الابن الأزلي نفسه هو "الذبيح قبل انشاء العالم" من حيث ان الله اعده للفداء٠ فالصورة المهيمنة في اعتقادي على حادثة المعمودية هي صورة المخلص المتألم والذي أعلن بنوته بالقيامة٠

ان نزوله في الماء يعطينا البعد الأخير لأن الماء هو المادة التي تحيي الخلائق وتحكي الكون كله٠ موت يسوع وقيامته المرتسمان بالماء يمتد فعلهما الى الخليقة كلها العاقلة وغير العاقلة٠ موت المسيح أمسى في قلب الكون وتغييره٠ هذا الواقع الخلاصي هو نزول الله الى الأرض وليس فقط الى الإنسان٠

لا يجيء المسيحيون من معمودية يسوع٠ هذه كانت طقسا يهوديا٠ يجيئون من موت المعلم وقيامته٠ معموديتهم هم ليست تكرارا للصبغة التي اقتبلها في الأردن٠ هي تحقيق شخصي لما قام به على الصليب او هي تأوين للصلب بمعنى ان الذي حصل قديما ينعكس في الآن او يعاش روحيا في الآن الذي نحن فيه٠ وفي هذا المنحى يقول بولس: "او تجهلون اننا، وقد اعتمدنا جميعا في يسوع المسيح، انما اعتمدنا في موته فدُفنا معه في موته بالمعمودية لنحيا نحن ايضا حياة جديدة" (رومية ٦: ٣و٤)٠ الصبغة التي اصطبغنا بها إسقاط لموت السيد وقيامته علينا او فينا٠

هذا كلام يجعل المسيحيين يحيون في سر المسيح٠ "حياتنا مستترة مع المسيح في الله"٠ فاذا قيل ان المسيحية ديانة أسرار فلا نعني انها ديانة غامضة او وحي قائمة على اللافهم٠ ولكنه فهم آخر مسكوب علينا من العقل الإلهي٠ انها التزام صوفي من حيث انها تقيم الإنسان في الله وتقيم الله في الإنسان وذلك بواسطة المسيح٠

***

أين نحن من صبغة المسيح هذه على صعيد العالم هذا المعذب؟ هل لهذا العيد معنى لكل البشر؟ ما يبدو لي امتدادا للذكرى ان المتألين في الأرض معمدون بآلامهم٠ عندما تعانيها مؤمنا تطهرك من الإثم وتتحرر من وطأتها٠ انت، اذ ذاك، ساكن قلب الله٠ الذين توجعوا كثيرا في دنياهم لا يذوقون مرارة الجحيم٠

كنت مرة اعود مريضا بالسكري بترت ساقه وفقد بصره٠ وفيما كنت ذاهبا اليه حاولت ان اركب الحديث الذي كنت سأطيب خاطره به٠ فاجأني صبره المذهل وكلامه الوديع٠ واخذ يتكلم على افتقاد الله اياه وعلى لطفه به فتعلمت ان للمريض المؤمن إحساسا كبيرا بربه وان آلامه كثيرا ما كانت له معراجا الى السماء٠ المحزن انك لا تقدر دائما ان تدخل المريض من باب الرجاء بسبب من شعوره انه لم يبق في عالم الأحياء وانه قد ادرك آخر المطاف على ارض حبيبة٠

هناك عزلة اخرى يسكنها المهجرون وما سويت اوضاعهم٠ ان دمار بيوتهم وقراهم عاشوه تفتيتا لشخصيتهم وإقصاء٠ هؤلاء المقهورون في الأرض انما هم لباس المسيح العاري على صليبه حتى ينالوا الحرية٠ لعل الجالسين على آرائك الحكم بعد ان بذلوا الكثير الكثير لا يستطيعون ان يحلوا كل المشاكل التي تعشش في نفوسهم٠ كيف نجبر كسر المكسور ونعلن ملوكيته ونسعى الى رفعه من ضغط الكون عليه؟

المهاجرون انفسهم مهجرون حقا لأن اليأس من احوال البلد يدفعهم الى الخارج٠ دعائي الى الله ان يحفظ لهم في الخارج انسانية سوية وذلك حفاظا على القيم التي لا نزال نرعاها حتى لا يتأثروا ويتأثر اولادهم بكل مخاطر الاغتراب ولا يتبدوا في متاهات العالم الواسع الذي يطحن الإنسان طحنا٠

"نفسي حزينة حتى الموت" فيما اشاهد الفقراء٠ ولكن بربي عليكم ايها الجالسون على كراسي الحكم لا تقولوا لنا ان لبنان بألف خير٠ اذا اردت ان أبقى مهذبا أقول ان هذا الكلام غير دقيق٠ نحتاج الى واقع معاشي لا يستبكينا٠ هذا يعني على الأقل ان نتدرج والا نوهم الناس بما هو غير حاصل٠

لقد صعد المسيح من الماء وانفتحت له السماء حتى لا يبقى احد غريق هذا الوجود٠ اذا كنا نقيم العيد غدا او ما كنا نقيمه المهم ان ندخل في حركة رحمة وحركة عطاء٠ لا ينفع احدا ان يأخذ من الكنيسة ماء ينضح به منزله تبركا ما لم يدخل مع فقراء الأرض في سر المشاركة العظيمة٠ ان الفرح لا يأتي فقط من فوق٠ الله هو المصدر ولكنه لا يعمل بلا قلوبكم او خارج قلوبكم٠ عيد للأنوار اجل ولكن هذا دعوة٠ الأهم ان نطيع الدعوة لنجعلها فعلا لأن المحبة وحدها هي العيد٠